



حين يُلْتَمَسُ الْوَجْدُ سَبِيلًا لِلْمَجْدِ

قراءة في قصيدة الشاعرة نبيلة الخطيب:

(هل جادك الوجد؟)

— د. أماني حاتم بسيسو - الأردن —

جادك الغيث إذا الغيث همي
يا زمان الوصل بالأنديس
لكن كلمة (الوجد) راعتي، فالوجد هو العشق أو الظمأ،
وَجُودُهُ هو إعطاؤه الكثير والمزيد، فالعطاء هنا إنما هو مزيدٌ
من المحنة والشقاء!
والقصيدة ترثي حالَ عاشقٍ مُسَهَّدٍ أضناه الْوَجْدُ وبرَّحَ
بأضلاعه:

هل جادك الوجد والأشواق تحترق
وأمعن السُّهْدُ في عينيك والأرق
فديت من عاشقٍ لا يستقيم له
إلا التباريح في الأضلاع تخفق

حاورت هذه القصيدة رُوحاً من الزمن، فباتت
أبياتها وصورها وتعبيراتها اللغوية تراوِدُ خاطري،
وتستحثني لأكتب عنها، شاقني عنوان القصيدة:
(هل جادك الوجد؟) في ديوان الشاعرة: (هي
القدس)^(١)، فكان اختياري لقراءتها قبل سائر قصائد
الديوان، وما شذني للعنوان، هو تلك المفارقة بين
(الجود) و(الوجد)، فالذي يتبادر إلى ذهن القارئ
بمجرد أن يطالع كلمة (جادك): أن الكلمة التي تليها
ستكون سمتها العطاء والبذل. واستدعى المطالع
إلى ذاكرتي صدر قصيدة لسان الدين بن الخطيب
(الشاعر الأندلسي) في رثاء الممالك الأندلسية:



والتماس الأمانى غير مُجدٍ، لأن الأيام سادرةٌ تُخِيطُ كالهائم على وجهه، فهي بيداء جرداء، بيد أن أمواجها مُفرقةٌ مهلكة:

بيداء بيدبها الأمواج صاخبة

جرداء يُحكم في أنوائها الفرق

وتُحكم الشاعرة تشبيه أيام المحنة في قلبها - بالصحراء الجرداء التي لا يقتلك محلها أو جذبها، بل أمواجها الصاخبة التي تُوعِد المصاب بالفرق!!، وهذا بابٌ من المفارقة أو التّضاد، والتّضادُّ جمعٌ بين متضادّين لا يمكن أن يجتمعا إلا في نفس الشاعر الذي يعيش انفعاله الخاص، وبناء التّضادّ يبلغ الغاية في التعبير عن الأسى والعذابات، والشاعر يستخدمه في قصيدته ليزيد من إحساننا بوقع المأساة وفظاعتها - بحسب ريتشاردز^(٥)، وقديماً قال الشاعر: ويضدّها تميّز الأشياء، فالتّضادُّ يبرز الأشياء في أوج تميّزها، وأخصّ صفاتها.

والشاعرة تحيل المعنى الذهني إلى صورة محسوسة (على سبيل التجسيد)، إذ تُشَبِّه حياة الإنسان المادّية الفقيرة إلى لمسة الروح بـ (البيداء)، ووجه الشبه هو الشعور المشترك بين الحياة الجافّة والسّير في الصحراء القاحلة، فتجسيد المعاني نقلٌ لها إلى عالم الإدراك الحسيّ لتقريبها إلى وجدان القارئ، وما يوحد بين المعنى وصورته الحسيّة هو الانفعال المشترك بين التجربتين كليهما.

وهذا العالم المؤلم القاسي الذي برّح بوجودان المحب حتى أضناه، يستغرق وصفه معظم أبيات القصيدة، أما العالم الذي يحلم الواجد بالانتقال إليه والعيش في أكنافه فشاعرتنا تلمح إليه في نهاية القصيدة بالفاظ مطمئنة، فبعد أن كانت الحالة النفسية للواجد مضطربة عبّرت عنها الشاعرة بأنها (نافرة، لاهثة، عادية، تنازعنا، ينفق....)، باتت عقب انتقالها للعالم الآخر ذات صفات راضية: (سكن، نبع لا يفيض به ود، لا بيّن نخشى أن يُداهمنا).

هذه تجربة الشعراء الذين لا يصحّ لهم إلا (الاستغراق) و(الإيمان) في العاطفة^(٦)، إنها تجربة الحبّ والعشق، وهي من أرفع العواطف الإنسانية التي تتجلى فيها قيمة البذل والتفاني في العطاء^(٧)، وقديماً ركّز الشعراء في مطالع قصائدهم على بثّ مواجدهم، جذباً لاهتمام القارئ، وشدّاً لانتباهه، وتحفيزاً لعاطفته، وكذا، تُثيرُ آهاتُ هذا العاشق المصاب ناراً في وجدان الشاعرة، فتشاركه بثّه ووجده على سبيل (المشاركة الوجدانية):

لزفرة الآه نار فطّرت كبدي

وبيات منها الحشا يغلي ويستلق

وغاية ما تُشير به شاعرتنا على هذا الواجد المصاب، هو لملمة جراحه، والصبر على ألم البين والفرق، والصبر بابٌ من المجاهدة^(٨).

لملم جراحك فالأيام سادرة

بالبين تسلطه سيفاً وتمتشق

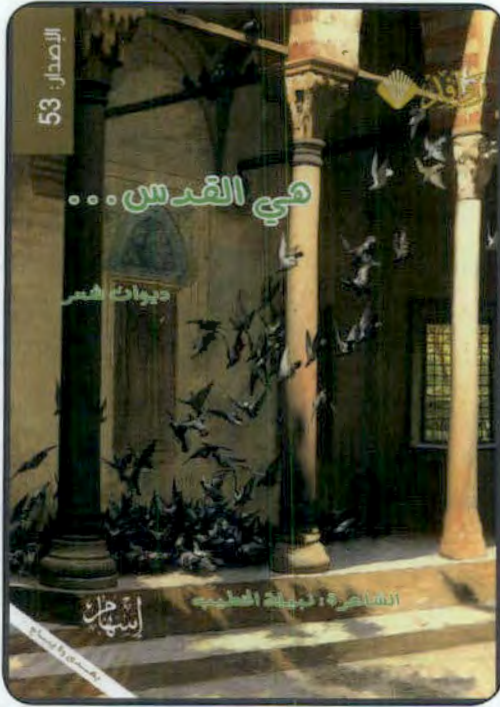
فلا التعطف يجدي في توددها

ولا التماس الأمانى حين نرتفق

هنا بات مصابُّ الواجد مصابّها، ولعلّ الشاعرة إنّما تُتاجي نفسها، تُبثُّ مواجع وجدانها، لكنّ فطرتها الإنسانية تأنس أن يشاركها غيرها مشاعرهما، أو كما قال أمير الشعراء (شوقي):

إن المصائب يجمعن المصابينا.

لذا رسّمت الشاعرة في خيال القارئ صورة العاشق المصاب الذي يشكو ألمه، وصورة أخرى ليّدة تمتدّ لترتبت على جراحه، وتواسي همّه، وبقولها (حين نرتفق) يبدو الهمّ عامّاً، لا همّاً خاصّاً فحسب، لأن ضمير الجمع يحل محل ضمير المفرد فيما يلي من أبيات: (بهجتنا، أمانينا، يماحكننا....) وهذا ممّا يُسلي المصاب، والقصيدة كلّها تسليّة وعزاءٌ لكلّ مصاب في الدنيا بأن له حياةً أخرى ملؤها الأمن والسعادة والعوض عن مشقة الدنيا في ظلّ عالم الرّوح حين تتطلق وتعلّق بالله تعالى.



والعاشق في ارتقاب للانتقال من عالم المحنة إلى عالم الراحة:

هل جادك الوجد؟ هُدهِد بعض ثورته

فالهداة الحق (حين الروح تنعق)

هذه صفة للصراع بين حياة الروح وانطلاقها ونعيمها، ومحدودية الجسد ومعاناته في سبيل نيل مطالبه، وتعبير الشاعرة بحال العاشق المتعب يقرب المعنى إلى إدراك المتلقي ويجعله يعيشه، بل يعانيه، ويُدرك مدى تَوَقُّ المُعَذِّب المحدود بقيود الدنيا إلى انطلاق روحه في عالم المثل الذي لا تقتنى مآثره:

هناك لا بين نخشى أن يُداهمنا

ولا يقض تدانينا بها فَرَقُ

العاطفة السائدة في القصيدة، والانفعال الذي يجمع أبياتها في انسجام هو: التفاني في البذل والعطاء في سبيل الفكرة التي يعيش الإنسان لأجلها، والقيم العليا التي يبذل في سبيلها كل نفيس، والتي تمثل له عالماً علوياً يرقى إليه فوق ماديات العالم الإنساني الضيق، ويحيا به في عالم روحاني يستغرق وجدانه، ويملك عليه تفكيره كله.

وفلسفة القصيدة تقترب من عالم الروح والخلود هرباً من طغيان العالم المادي، إنها موساة للمؤمن ودعوة إلى مجادلة الدنيا والاستعانة بالصبر، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَنَى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا نَضْعَ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قَرْطًا﴾ (الكهف: ٢٨)، والموقف الإيجابي عند شاعرتنا هو الصبر في تحدي السلب والإحباط.

ونلاحظ أن عناوين القصائد في ديوان الشاعرة على وجه عام - نابضة بالشوق والحنين: (أعوذ من الهوى، يا شوق صبراً، ما غيبوك، أقرئه عني الجوى، أم ما زلت ظمأنا) ... إنها رحلة المُحِبِّ في دربِ الحب.

نرتدّ نبحث عن ماضٍ تنازعنا

ذكرى تفيض بنا من طيفها عبق

تساءلتُ طويلاً: ما هي الذكرى التي لا تبرح خيال شاعرتنا، ولا تفك تتنسم شذاها وتستروحه، وقادني التأمل - المرة تلو المرة - إلى عنوان الديوان... (هي القدس)، وهي ذكرى تسمو بشاعرتنا إلى عالم الروح، وإن كانت مادتها من تراب هذه الأرض (بعض أديمها):

قلله أرضٌ نحن بعض أديمها

ونبض هواها في الخوافق روح

القصيدة تبدو في لوحات أربع: المطلع حنين المشتاق، ولهفة المتوجع المتألم الشغف إلى اللقاء، والشاعرة في المطلع تتحدث للعاشق تخاطبه، وتستشف آلامه، بل تُشاركه وجده وحزنه، وتبيت زفراته تظفر كبدها:

لزفرة الآه نار فطرت كبدي

وبات منها الحشا يغلي ويستلق

وتنحو عليه باللوم والعتاب لشدّة ما أَرْهَقه الوجد واستهلك قواه، وأعتقد أن الشاعرة إنما تخاطب نفسها ووجدانها وتواسي ذاتها، فهي قد اشتقت من ذاتها صورة لشخص تخاطبه كي يكون أبلغ في مقام اللوم والعتاب

وتبدو إلى جوار شخصية الشاعرة شخوص فتيّة (عاهدوا الله أبراراً وقد صدقوا)، لتطرح في خيال المعاتب صورة تجربة من سبقهم في الوصول:

نرتد في زمرة الأحباب صفوتنا

من عاهدوا الله أبراراً وقد صدقوا

واللوحة الثانية من القصيدة تركز على وصف سير الأيام السادرة التي تحيط دون هدى، ولأن مسارها غير ممهد فهي تحمل الصفة وضدها (المفارقة)، لذا كانت (صخور الهم) في مقابل (معول الصبر)، وصيغة الفعل المضارع تنبئ عن أن الحزن دائم في عمله، وأن هذه سيرته لا ينفك عنها،

ومعول الصبر كم ينبو ونشجده

فهل عليه صخور الهم تنفلق؟

والفعل (ينبو) على الضد من (نشجده)، كما ورد الفعل (ترقه) في مقابل (ينفلق)

فكلما راحت الأيام ترتقه

وهما تضاحك منها وهو ينفلق

والإيمان هو سمة الأفعال التي تبدو واضحة في هذه اللوحة:

يمتد حزن على أطراف بهجتنا

نمسي نكفكفه فينا وينهرق

له جناحان كالغريان يضردهما

تنضم فوق أمانينا وتفترق

يطل مثل فضوتي يماحكننا

تطاول الصدر والكثفان والعنق

(يماحكننا): يُمعن في إعيائنا ويُطيل جدائنا فيما نحن به موقنون، ولا ينفك يحاول زعزعة إيماننا (نكفكفه وينهرق).

أما اللوحة الثالثة فهي إنكار على حال من يتعلق بالأوهام في دنيا لا يثق الإنسان فيها بموطئ قدميه، فكل الصور في هذا المقطع مرتبطة بالسفر والمسافر:

فما الترقب والدنيا على سفر

من ذا يلجلجها شكاً ومن يثق

وكل نوع من الحركات له انطباعه النفسي الخاص فكلمة (يلجلج) تحمل في جرسها الصوتي سمة الاضطراب، والحركة العشوائية، بينما تجلي كلمة: (يثق) معنى الاستقرار والضبط، وتوحي كلمة: (الترقب) بمتابعة الترسّد والتأمل المرة تلو المرة.

وفي هذه اللوحة تعمل الحواس كلها مجتمعة: (الشم: عبق)، (الحركة: تستبق)، (البصر: العيون):

نرتد نبحث عن ماضٍ ننازعنا

ذكرى يفيض بنا من طيفها عبق

تستوطن الشمس شيباً في ذوائبنا

وفي العيون لهاتيك اللظى شفق

فما الترقب والدنيا على سفر

وما التريث والأعمار تستبق

(تستوطن الشمس شيباً في ذوائبنا): طلوع كل شمس إيذان بمرور الزمن، يورثنا الهرم، ونحن ما زلنا نتأمل عطاء الدنيا، ونترقب النور والشفق وإن كان نوراً ناجماً عن (اللظى) وإن كان سبباً في جلب الأذى لنا، وننساء: لم جاء تعبير الشاعرة باسم الإشارة (هاتيك) للمفرد المذكر: (اللظى)، عوضاً عن (ذياك) مثلاً، وأظن أنها قصدت إضمار لفظة (شعلات) للظى، كناية عن مجيئها على هيئة دفعات متفرقة.

واللوحة الأخيرة هي التي إليها يطمح وجدان الشاعرة: لوحة الهداة الحق، إذ لا بين ولا فراق:

هل جادك الوجد هدهد بعض ثورته

فالهداة الحق حين الروح تنعتق

(تنعتق) من محدودية العالم المادي الذي يُقيّد الإنسان، إلى عالم الروح بتألقه وسحره، وقد كنت أشفق عليك من الوجد، لكنني إذ عرفت أنه تعلق بالعالم العلوي، وذقت لذة الحياة فيه، طلبت لك الصبر عليه:



وسمة هذا المقطع الأخير جمال الألفاظ وتأنقها:

ويا لذكرك من زهر له عبق

يضفي على الشعر إيناقاً ويأتلق

وهذا ما يُسمّى في البلاغة بـ (التشبيه المقلوب)، إذ أضحي ذِكْرَكَ هو ما يُحسّن الشعر، وليس الشعر هو ما يُحسّنه.

وتتغير صيغة الاستفهام الإنكاري (هل جادك الوجد) الذي يحمل طابع الرثاء والتأسي لحال العاشق المضنى، فتتحول في نهاية القصيدة إلى صيغة للمبالغة (كم جادك الوجد)، لم يُعد توقّ الشاعر ووجدّه مستهجنًا، إنه انتقال إلى عالم أرحب فضاءً (حين الروح تتعق)، إن الاستغراب كله بات في قدرة الواجد على تحمّل ما يُلاقى في سبيل الوصول إلى عالم الطمأنينة والظفر به، وهو الصبر، وهنا بدأت معاناة جديدة للواجد المضنى وهي معاناة السرّ والكتمان، لأن الواجد غالباً ما يبوح بمواجهه فيتصبر على وجده بالبوح، أما الكتمان فهو أوجد وأبرح:

كم جادك الوجد هل كتمته جلدًا؟

فالصابرون لهم في المرتقى فلق

فالجِد هو مقاومة الهروب من التحدّي والصبر في مواجهة الدنيا، وعدم الاستسلام إلى حين الظفر بالعالم المثالي الذي لا يتحقّق إلا بالصبر:

ومعول الصبر كم ينبو ونشحنه

فهل عليه صخور الهم تنفلق

والصبر ليس إذعاناً أو رضوخاً أو استسلاماً سلبياً، إنّما هو ضربٌ من المقاومة، لأنها تختار لصفته قولها: (معول الصبر)، فالموقف موقف تحدٍّ وأمل بأن تنفلق صخور الهم في مواجهة الصبر على أذاها.

ومن خلال القصيدة تبدور رحلة الواجد رمزاً، والرمز كشفٌ للأشياء المجهولة^(١)، ومحاولة اقتراب من عالم الأفكار التجريدي، وعالم الوجدان المتراحب.



والصورة التي تُهيمن على سائر الصور في القصيدة هي صورة الخيل في سباق، تسعى لهدفٍ مُعيّن، فالشاعرة تصف الوجد، وهو موضوع القصيدة الأول، بقولها: (هدهد بعض ثورته).

والانفعال السائد في القصيدة هو الإمعان في (المعاناة)، والتوق للانعقاد منها، والصورة الأوضح هي صورة المسافر المعنى، والوصية التي يتلقاها إنما هي الصبر، وصيغة الأفعال الغالبة في القصيدة صيغة الفعل المضارع الذي يُكسب الحركة انفعالاً وحيوية: (تظل)، (تضبح)، (تلوي)،....، أو الصفة باسم الفاعل، الذي يؤكد لزوم الفعل للفاعل، واستمرار الفعل: (نافرة)، (عادية)،... وأخيراً،...

نتساءل عن مدى التقارب بين رؤية الشاعرة لصراع البشر في الحياة ونظرة الرومانسيين إليها، بأنها دربٌ شاقٌّ على المسافرين، ونظرتهم إلى صراع البشر فيها، الذي يُجليه قول أبي ماضي:

قال: التجارة في صراع هائل

مثل المسافر كاد يقتله الظما

أو غادة مسلولة محتاجة

لدم، وتنفث كلما لهثت دما

وتوقّ الشاعرة إلى عالم الروح هل هو نظير توقّهم